مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 149 (1): 176-196

Damascus university journal of Historical Studies
V 149 (1):176-196

الكنائس مركزية التخطيط في سورية خلال العصر البيزنطي

جهاد حج عباس[1]، سعيد الحجي[2]

[1]طالب دكتوراه، جامعة دمشق، الاثار الكلاسيكية
(jehad.hagabbas@damascusuniversity.edu.sy)
[2]أستاذ دكتور، جامعة دمشق، الاثار الكلاسيكية.

تاريخ الايداع:2024/7/4
تاريخ القبول: 2024/9/18

CC BY NC SA
حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

الملخص:

قام الباحث بإحصاء أهم الكنائس مركزية التخطيط في سورية، ووضح التباينات فيما بينها من حيث التخطيط والعناصر المعمارية المختلفة، ويبدو ان التخطيط المركزي كان حلاً معمارياً للكنائس التي تحوي أحد أضرحة الشهداء لتنظيم حركة الحجاج للكنيسة، كما انها قدمت حلاً لعملية الوعظ في هذه الحقبة المبكرة، ولاسيما مع صعوبة سماع المؤمنين للواعظ في الكنائس البازليكية.

الكلمات المفتاحية: كنيسة، حنية، عمارة، بيزنطي، مركزية التخطيط.

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

Churches were centrally planned in Syria during the byzantine period

Jehad Hag Abbas[1], Said Alhagi[2]

[1]PhD student, Damascus University, Classical Archeology[1]
[2]Professor Doctor - Damascus University, Classical Archeology[2]

Received: **4/7/2024**
Accepted: **18/9/2024**

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a **CC BY- NC-SA**

Abstract:

The researcher counted the most important churches with central planning in Syria, and explained the differences between them in terms of planning and various architectural elements. It appears that central planning was an architectural solution for churches that contain one of the shrines of martyrs to organize the movement of pilgrims to the church. It also provided a solution to the preaching process in this early period. Especially with the difficulty of believers hearing the preacher in basilican churches.

Keywords: Church, Apse, Architecture, Byzantine, Central Planning..

المقدِّمة

يوجد في سوريَّة ثلاثةُ أنماطٍ للكنائسِ: أمَّا النَّمط الأوَّل فهو الكنائسُ ذاتُ المجازِ الواحدِ والَّتي تُسمَّى بالمصلَّى، وهي أبسطُ أنواعِ الكنائسِ، تتألَّفُ من غرفةٍ واحدةٍ، ولها حنيةٌ من الجهةِ الشّرقيةِ تعدَّدت أشكالُها، وأمَّا النَّمط الثَّاني فهو مشابهٌ للأوَّل، ويمتازُ عنه بتعدُّدِ المجازات من خلال صفّين من الأعمدة الَّتي تَقسم المصلَّى إلى ثلاثةِ مجازاتٍ، يكون المجازُ الأوسطُ أكثرَ عرضاً وأكثرَ ارتفاعاً من المجازين الجانبيين، وله حنيةٌ متعدِّدةُ الأشكالِ من جهة الشَّرقِ، وقد فضَّل المسيحيون هذا المخطَّط لسهولة تنفيذه، ولأنَّه يتماشى مع متطلَّبات الصَّلاة في الدِّيانة المسيحيَّة، وكذلك لكونه مُقتبَس من مبنىً مدنيّ وليس دينيّ، لذلك نجد أغلب الكنائس في سوريَّة مبنيَّة وفق هذا النَّمط.أُطلق عليه اسم البازليكة، وذلك لأنَّه مُقتبسٌ من البازليك الرُّومانيّ الَّذي كان يُستخدَم كدارٍ للعدالةِ والقضاءِ أو للاجتماعاتِ العامَّةِ في العصر الرُّومانيّ ، وأمَّا النَّمط الثَّالث –وهو موضوعُ بحثِنا– فهو الكنائسُ ذاتُ المخطَّطِ المركزيّ ذو القبَّةِ المركزيَّةِ، وقد اندرجَ تحت هذا النَّمط من الكنائسِ : الأضرحةُ التذكاريَّة وكنائسُ الشُّهداء(الكنائس الَّتي يُحَجُّ إليها) والمعموديات.

عُرِف التَّخطيط المركزيّ في العمارة الرُّومانيَّة لتلبيةِ أغراضٍ وظيفيَّةٍ متباينةٍ، فنجده في المنشآتِ المدنيَّة والجنائزيَّة والدِّينيَّة، إذ يمكن تتبُّع هذا التَّخطيط في كلٍّ من قاعاتِ الحماماتِ الرُّومانيَّة منذ القرن الأوَّل قبلَ الميلاد، وقاعاتِ الاستقبال في القصور الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة في القرن الثَّاني الميلاديّ، واستُخدِم كذلك لأغراضٍ وظيفيَّةٍ أخرى، فنجد البانثيون في روما يمثِّل منشأةً دينيَّةً والذي تحوَّل لكنيسة مسيحيَّة لاحقاً في القرن السَّابع الميلاديّ، ومع بداية القرن الثَّالث الميلاديّ استُخدِم في الأضرحةِ التَّذكاريَّةِ، واكتسب الشَّكل المعماريّ مع هذه الوظيفة رمزيَّةً خاصَّةً إشارةً إلى العالَم السَّماوي، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ العمارةَ المسيحيَّةَ المبكِّرةَ أقرَّت هذا التَّخطيط وفق المعنى الوظيفيّ الأخير، وتبنَّته في تخطيط المعموديات وأضرحة الشُّهداء(Ward-Perkins,1966,297-299)، ومن أهمِّ الكنائس ذاتِ القبَّةِ المركزيَّة في سوريَّة كنيسةُ القدِّيس سمعان، وكنيسة مرعيَّة، وكاتدرائيَّة أفاميا، وكنيسة الرّصافة، وكنيسةُ إزرع، وكاتدرائيَّة بصرى.

الدِّراسات المرجعيَّة:

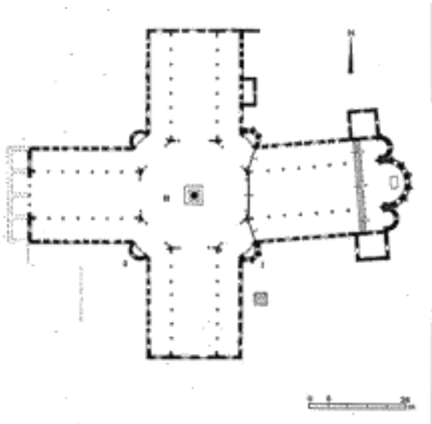
لعلَّ من أهمِّ الدِّراسات القديمة الَّتي اهتمَّت بالكنائس البيزنطيَّة في سوريَّة ما قدَّمه الباحث دي فوغيه بعنوان (سوريَّة المركزيَّة) في العام 1865–1877م، والذي تحدَّث فيها عن العمائر البيزنطيَّة المختلفة في سورية الشَّماليَّة والجنوبيَّة-DE Vogue,1865 (1877) ومع نهاية القرن التَّاسع عشر جاءت بعثةٌ أثريَّة من جامعة Princton بإدارة عالم الآثار بتلر الذي أجرى العديد من الدِّراسات على بعض المواقع، وقد تناول عدداً كبيراً جداً من الكنائس في هذه المواقع، نشر بعضها بعنوان (الكنائس الأولى في سوريَّة)(Butler,1969) . وبعد ذلك قامت الجامعة اليسوعيَّة في لبنان متمثِّلةً بعالِم الآثار المعروف ماترن بإعداد دراسةٍ عن بعض المواقع وكنائسها ونُشرت بعنوان (المدن الميِّتة في شمال سوريَّة)(Mattern,1944).

وفي بداية الثلاثينات من القرن العشرين، قام عالم الآثار Tchalenko بتغيّر التَّسمية الَّتي أصبحت سائدةً في ذلك الوقت، وهي المدن الميِّتة إلى القرى القديمة وعنون كتابه بالتَّسمية الجديدة (القرى القديمة في شمال سوريّة)، وتُعدُّ هذه الدِّراسة من أهمِّ الدِّراسات الَّتي يُعتمَد عليها في الوقت الحاضر (Tchalenko, 1953-1958)

ومن أهمِّ الدِّراسات الَّتي تطرَّقت إلى بعض الكنائس ذات القبَّة المركزيَّة ما قدمه لاسوس حول كنيسة القدِّيس سمعان والمنطقة المحيطة بها(Lassus,1947)، كما درس كلٌّ من جوير وسبان مدينة الرّصافة وأطلالها ومبانيها دراسةً دقيقةً ونشروها في كتابٍ بعنوان (الرّصافة)، وقد ركَّزوا في جانب من هذا الكتاب على ذاك المزار القديم (كنيسة القديس سرجيوس)، الذّي كان يؤمُّه المسيحيون زرافاتٍ، وقد نُشر هذا الكتاب في العام 1926م باللّغة الألمانيّة(.Spann, Guyere,1926)، ولعلَّ دراسة الباحثة Naccache من أهمِّ الدِّراسات التي تناولت الزَّخارف في هذه الكنائس.

منهجية البحث:

اعتمد الباحث على المنهجين الوصفي والتحليلي في إعداد هذه الدراسة من خلال الأعتماد على عدد من المراجع العربية والأجنبية التي تخص البحث، فقام الباحث بوصف كل كنيسة تنتمي إلى هذا الطراز على حدا بوصف هندسي ،ومن ثم درس التباينات والتشابهات بين هذه الكنائس لاستخلاص النتائج المطلوبة.



المخطط (1) كنيسة قلعة سمعان

أولاً: الدراسة الوصفية:

1- كنيسة القدِّيس سمعان:

بُنيت هذه الكنيسةُ ما بين العامين (476 –490م)، وتقعُ على بعدِ (30 كم) إلى الشّمال الغربيِّ من حلبَ و(48 كم) إلى الشّمال الشَّرقيّ من مدينةِ إدلب، في الجزء الجنوبيّ من جبلِ سمعانَ، متربّعةً على نتوءٍ صخريٍّ يرتفعُ عن السّهولِ المجاورةِ بنحوِ 100 قدمٍ، وعن سطح البحر بنحوِ (564م) (دبس،523،2004)، أمَّا المخطَّط العام لهذه الكنيسة يتألَّف من فناءٍ مثمَّنٍ في الوسط، يحيطُ بهِ أربعُ بازليكيات متشابهة تقريباً انظر إلى المخطط (1)، ربَّما كانت كلٌّ منها قد خُصِّصت لطائفةٍ من الطَّوائفِ المسيحيَّةِ الأربعةِ اليونانيّةِ والسِّريانيَّةِ واللاتينيَّة والأرمنيَّة(رباط، 1931 ،82)، ولعلَّ وجود الصُّلبانِ الخمسِ: الإغريقيّ والرُّومانيّ والمالطيّ والبيزنطيّ والسِّريانيّ على جوانب الكنيسةِ يُؤكِّد هذه الفرضيَّة، حيث امتازت الجنوبيَّة منها برواقٍ ضخمٍ، تقدَّم واجهتها

الجنوبيَّة والشرقيَّة بالحنيات الثّلاثة الّتي برزت عن جدارها الشَّرقيّ، في حين احتلَّت أركانُ المُثمَّن أربعةَ مُصلَّياتٍ، كلٌّ منها ذو حنيةٍ نحوَ الخارج(انظر الصورة 1)، ولم ينتبه الباحثون الأوائل الذين زاروا الموقع، ودرسوه إلى ميل البازليكة الشَّرقيَّة إلى الشّمال قليلاً عن محوري الكنيسة(DE Vogue,1865-1877,pl.13)، إلى أنْ جاءت البعثةُ الأمريكيَّة الموفدة من جامعة Princton



الصورة (1) مشهد لمثمن كنيسة قلعة سمعان من الداخل

وقامت بمجموعةٍ من القياساتِ الدَّقيقة الّتي توصَّلت إلى أنَّ البازليكة الشَّرقيَّة تميلُ بنحوِ (2.43م) عن محوري الكنيسة(Butler,1920,281)، ولقد تعرَّضت المنطقة إلى هزاتٍ أرضيَّة شديدةٍ بين العامين 526م–528م، وهدمت معظمَ أبنيةِ أنطاكيَّة، وربَّما سبَّبت أضراراً كبيرةً في كنيسةِ سمعانَ، وبخاصَّةٍ في المثمَّن الأكثر تأثُّراً بالزلازل، ممَّا جعله يفقدُ قبَّتَه، ويبقى مكان العمود مكشوفاً للسَّماء دونَ غطاءٍ، كما وصفه لنا إيفارجيوس/Evargius[1] حين مروره بالكنيسةِ في العام 560م(Evargius,1846, 29-30). أمَّا أرضيَّة المثمَّن الحاليَّة، فهي عبارة عن بلاطاتٍ غطَّت الأرضيَّة الصَّخريَّة حولَ قاعدةِ العمودِ، ويعودُ بناؤها إلى القرن العاشرِ الميلاديّ الرابع الهجري(حجار، 1995، 36) . انظر إلى المخطَّط(2)

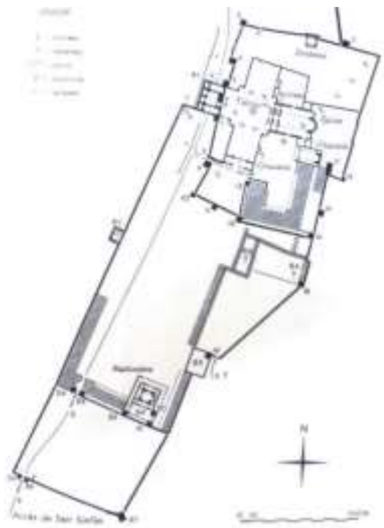
1 Evargius : مؤرِّخ سوريّ من أنطاكية زار موقع قلعة سمعان وكتب عنه في العام (560م)، وتحدث عن وفاة القديس والنصب الذي أُقيم حول العمود.

طريقة التَّسقيف: سُقِفت كلٌّ من البازليكيات الأربعةِ في الكنيسة بسقفٍ جمالوني من الخشب المُغطَّى بالقرميد، مثله مثل كلِّ الكنائسِ البازليكيَّة المنتشرةِ في شمال سوريَّة، أمَّا المثمَّن فتعدَّدت آراء الباحثين حولَ قضيَّة تغطيّته، وهناك الكثير من الباحثين الَّذين لم يتطرَّقوا لهذه القضيَّة مُستدلِّين بكلامِ المؤرِّخ إيفارجيوس/Evargius، والَّذي قام بزيارةِ الموقع في العام (560م): " المعبد على شكل صليب ..... احتلَّ المركز منه فناءٌ تحتَ السَّماء ذو فنٍّ عظيمٍ، يقفُ فيه العمود ذو الأربعين ذراع الَّذي كان يتربَّع عليه الملاك المُتجسِّد الَّذي أمضى حياته السَّماويَّة على الأرض(Evargius,1846, 29) .



الصورة (2) كنيسة قلعة سمعان – إعادة بناء الجسم المثمن العلوي مع تخيل لنجارة السقف (Biscop)

وقد زارها **كرنكر**/Krencker في العام 1938م وطرح نظريته بأنَّ الفناءَ كان مسقوفاً بقبَّةٍ خشبيَّةٍ مزدوجةٍ معتمداً على عثوره على كتلٍ حجريَّةٍ من كورنيش المثمَّن، فيها ثقوبٌ لتثبيتِ السَّقفِ الخشبيِّ، واكتشاف بعض الأجزاء من كتلٍ حجريَّةٍ يُعتقَدُ بأنَّها كانت أجزاءً من حنياتٍ ركنيَّةٍ، كانت في زوايا الكورنيش، تساهمُ في دعم السَّقف الخشبيِّ (Krencker,,62-89) ، ولعلَّ الرَّأيَ الأسلم هو رأيُ سدني/Sodini وبيسكوب/ Biscop الَّذي يقول بأنَّ الفناءَ المثمَّن من المؤكَّد بأنَّه كان مسقوفاً وعلى الأرجح بسقفٍ هرميٍّ خشبيٍّ (ثُماني الأضلاع)، بلغ الارتفاع الكلِّي للمثمَّن نحو(42م)،(20.50م) منها حجريّ، و (21.50م) خشبيّ Biscob) & Sodini, 1983, 370)(انظر الصورة 2) .



المخطط (2) دير سمعان مع الكنيسة

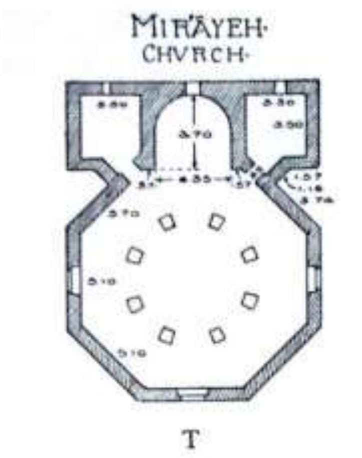
2- كنيسة مرعيَّة:

تقع هذه الكنيسة في قرية مرعيَّة الَّتي تبعدُ 120 كم غرب الرُّصافةِ ، وتعودُ إلى القرن الخامس الميلاديّ، وقد بنيت من الحجر الكلسيّ (ضو، 1977، 310) ، اكتشف الكنيسة بتلر / Butler في العام 1905م، وقام برسم مخطَّطٍ لها، إلَّا أنَّ هذه الكنيسةَ قد زالت اليوم تماماً؛ بعد أن قام سكانُ القريةِ باستخدام حجارتها في مبانيهم للأسف، وهذه الكنيسةُ فريدةُ التخطِّيط؛ صحنُها مثمَّنُ الأضلاعِ، وله ثلاثةُ أبوابٍ: غربيٌّ وجنوبيٌّ وشماليٌّ، وهذا الصَّحنُ منقسمٌ في الدَّاخل إلى قسمين مستديرين، تفصل بينهما ثماني قناطر مرتَّبةً على شكلِ حلقةٍ، تحملُ رقبةً دائريَّةً تحملُ فوقها قبَّةً نصف كرويَّة، ينفتح هذا الصَّحن المثمَّن في جهته الشَّرقيَّة على قدس الأقداس المؤلَّف من حنيةٍ في الوسط طولها 3.70 سم وعرضها 4.35 سم، ويكتنف الحنيةَ غرفتا الدياكونيكون/Diakonikon [2] والمارتيرون /Martyrion [3] المربعتان، وهما ممتدَّتان شمالاً وجنوباً خارج دائرة الصَّحن المثمَّن،

2 الدياكونيكون: هي الغرفة المحاذيّة للحنية لجهة اليسار أي الشّمال وفيها يلبس رجال الدين ملابسهم وفيها تحصل الاستعدادات للقدّاس والاحتفالات الدّينيّة وفيها توضع الأواني الكنسيّة، والكتب الدّينيّة والطّقسيّة الضّخمة.

3 المارتيرون :تُدعى بالسّريانيّة "بيت سهدو" وهي الغرفة المحاذيّة للحنية لجهة اليمين أيّ الجنوب وقد استخدمت لحفظ ذخائر الشهداء.

بحيث تبدوان كأنَّهما جناحان، الحائطُ الشَّرقيّ المغلف لقدس الأقداس مستقيمٌ، وفيه ثلاثةُ أبوابٍ: بابٌ للحنيةِ وبابٌ لكلٍّ من الدياكونيكون والمارتيرون.(Butler,1920,.122) انظر إلى المخطط(3)

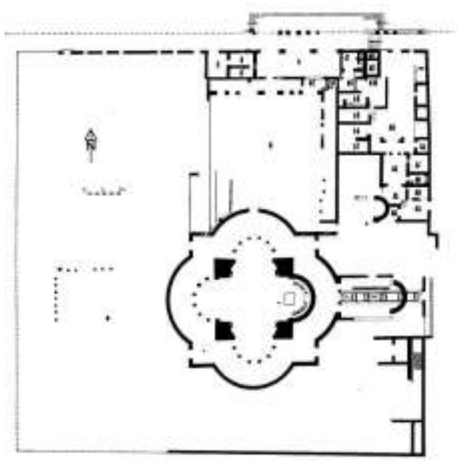


المخطط (3) كنيسة مرعية

3- كاتدرائية أفاميا:

تقع في مدينة افاميا في حوض نهر العاصي على بعد 55 م شمال غرب حماه وهي المدينة الثانية بعد انطاكية طيلة العصرين الهلينستي والروماني، وقد أسسها Seleukos Nikator في العام 300م. وبعد انتشار الديانة المسيحية ظهر اسم أفامية في قوائم المجامع الكنسية منذ بداية القرن الرابع ثم أصبحت مقراً لأسقفية كبيرة ترعى كثيراً من الكنائس والأديرة. ومن أهم معالمها الكاتدرئية التي تُنسَب إلى القرن السَّادس الميلاديّ، والتي امتازت بتخطّيطها الصليبيّ، والأضلاع الرئيسة من الصَّليب منحنيةٌ، تحوي فناءً مركزيًاً، يحوي أربعَ قواعدَ كبيرةً، كانت تحمل قبَّةً، ويكتنفُ هذا الفناءَ أربعُ مساحاتٍ مقوَّسةٍ، المساحة الشَّرقيَّة منها تمتدُّ لتشكِّلَ معبداً طويلاً، وعلى الأغلب استُخدمت هذه الكنيسة كمارتيرون (دار شهداء)، وممَّا لا يدع مجالاً للشَّكِّ أنَّها كانت تضمُّ ذخيرةَ عودِ الصَّليبِ الّتي تملكها أفاميا، وقد رُعِيَ في التَّصميم ما يترتَّب من خدماتٍ على الكنيسة الَّتي يَؤُمها الحجاجَ. انظر إلى المخطَّط (4)

وبعد الزّلزالين المتعاقبين الّذين ضربا المدينة سنة 526– 528م، حُوِّل هذا البناء إلى كاتدرائيّة، وقد تطلَّب هذا التَّعديل الدِّينيّ إصلاحاتٍ هندسيَّةٍ هامَّةٍ: كسد التَّفرع الشَّرقيِّ (المعبد) بحنيةٍ ضخمةٍ فيها ثلاثُ نوافذَ مرتفعةٌ، وإلى أسفل الحنيةِ رُكِّزت مقاعدُ الكهنةِ على شكلِ نصفِ دائرةٍ ، يتوسَّطها مدرجٌ مهيبٌ، يقود إلى عرش رئيس الأساقفة، وإلى الأمام قاعدةٌ كبيرةٌ من المرمر الورديِّ، انتصبت عليها أعمدةُ القبَّةِ الَّتي تعلو المذبح، ثمَّ صفان من أربعة أعمدة تَقسمُ صحنَ الكنيسةِ تحتَ القبَّةِ الكبرى إلى ثلاثة مجازاتٍ ، مع الاحتفاظ بالمارتيرون في الوسط، وتفرعاته الَّتي استُخدمت كمجازاتٍ(اثناسيوس، 1997، مج5، 377).

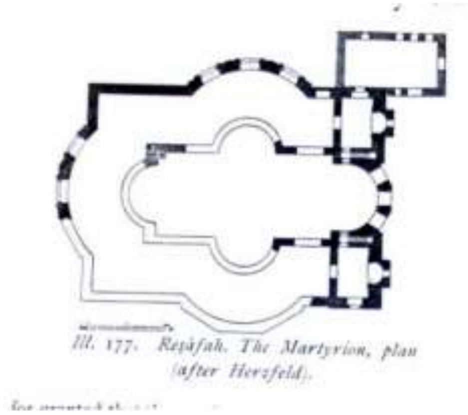


المخطط (4) كاتدرائية أفاميا

4- كنيسة الرّصافة:

مدينة الرصافة هي سرجيوبوليس/ Serigiopolis أي مدينة القديس سرجيوس، تقع شمال سورية الى الجنوب الغربي من الرقة وتبعد عنها نحو 50 كم، وقد نالت الرصافة أهمية استراتجية خلال العصر الروماني لكونها حصناً على حدود الإمبراطورية الرومانية لصد هجمات الفرس والبارثيين. وكنيستها تعود إلى القرن الخامس الميلاديّ، بُنيت من الحجارةِ البيضاء اللامعة، وكُسيت جدرانُها بالمرمر الورديِّ الَّذي استُعمل أيضاً في إكساء أرضيَّة هذه الكنيسة، كما أنَّ الأعمدة الكورنثية المستخدمة في هذه الكنيسة كانت من المرمر الورديِّ، والمبالغة في استعمال الحجر الورديِّ ربَّما كانت له رمزيَّةٌ متعلِّقةٌ بدماء الشُّهداء مارسركيس وباخوس

وجوليا، طول الكنيسة 42م وعرضها 34م ، تصميم الكنيسة ليس مربّعاً ولا مستطيلاً، وإنَّما تخطّيطها صليبيٌّ، الأضلاع الرئيسة من الصَّليب منحنيةٌ، الحنيةُ في قدس الأقداس نصفُ دائريَّة في الدّاخل ومتعدِّدة الزوايا من الخارج ، ولكلٍّ من الدياكونيكون(حجرة الخدمة) والمارتيرون (حجرة الشهداء) حنيةٌ نصف دائريَّة من الدَّاخل ومربعة من الخارج، وأقواس كلٍّ من حنية المذبح والمارتيرون والدياكونيكون من النَّوع الَّذي سُمِّي فيما بعد القوس العربيّ بسبب تقارب أطرافه السُّفلى، وقد زُخرفت قنطرةُ حنيةِ المذبحِ بطاقمٍ عريضٍ من البراويز، ولكن الأجمل منه طاقم القنطرة المتصدِّرة حنية الدياكونيكون المؤلَّف من جملة براويز وعصائب عريضة، إحدى هذه العصائب على شكل داليَةِ كرمة، تتدَّلى منها العناقيدُ وتُزيِّنها الأوراق البديعةُ، وينطلق كلٌّ من طرفي هذه الداليَة من إناءٍ بديعِ الشّكل، وشاهدنا زخرفةً مشابهةً له في كنيسة قلب لوزة، يتوسَّط القنطرةَ صليبٌ ضمن قرصٍ مستديرٍ، أمَّا البراويز فتتألَّف من شريطٍ من السّبحة والحبوب وآخرَ من صفِّ البيض والأسهم تتخلَّلُها أوراقٌ نباتيَّةٌ مثل الشَّريط المستخدم في كنيسة قلعة سمعان، وهنالك برواز من الدَّوالي وآخر من سلسلة أبراجٍ ربَّما استمدَّت رسمُها من كنائس سوريَّة الغربيَّة، وهنالك زخارف أُخرى في هذه القنطرة تنفرد بها هذه الكنيسة(ضو، 1977، 309-311). انظر إلى المخطَّط(5)



المخطط (5) كنيسة الرصافة

5- كنيسة إزرع:

تقوم هذه الكنيسة في مدينة إزرع بمحافظة درعا، وتُعرف باسم كنيسة القديس مارجورجيوس للرُّوم الأرثوذكس، وقد أُنشئت في موقع معبد وثنيّ قديم، وكان بناؤها وفقاً لتقويم بصرى في أواخر عام 515م وبداية عام 516 م، وقد عاصرت مجموعة من أشهر الكنائس مثل كنيسة سرجيوس وباخوس /st sergius and bacchus في بصرى (512م)، وكنيسة سانت ڤيتال/ san vitaleفي إيطاليا (547م) وكنيسة آيا صوفيا في إسطنبول (532- 537م)، إنَّ رجلاً محباً للمسيح الشَّريف وهو **جان بن ديوميدس**/ Diomedes قد بنى هذه الكنيسة الجميلة، ووضع فيها ذخيرة الشَّهيد جورجيوس/ Georgius، بعد أن ظهر له القديس المذكور، ليس في المنام، بل في اليقظة.

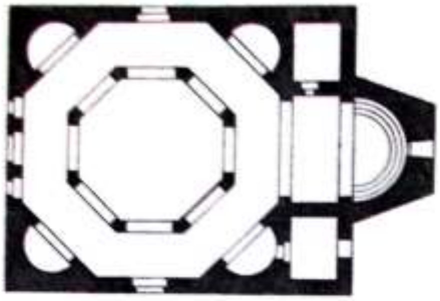


الصورة (3) كنيسة إزرع من الخارج

مخطَّط الكنيسة: بُنيت هذه الكنيسة بمخطَّطٍ مربّعٍ من الخارج مُثمَّنٍ من الدَّاخل، وفي وسطها قبَّةٌ كبيرةٌ، ويبرز في الجدار الشَّرقيّ شبهُ منحرفٍ يُكوِّن حنيةَ الهيكلِ الَّتي تتميَّز بمكوناتها الفخمة، كما يتألَّف من عدَّة عناصرَ معماريَّةٍ متَّصلةٍ ببعضها، أهمُّها المذبح الَّذي هو عتبةٌ حجريَّةٌ محاطةٌ بقناةٍ منحوتةٍ لتقديم الأضاحي. (الحجي ، ص375)

ويوجد داخل الكنيسة شكلٌ مثمَّنٌ، يتوزَّع أمام كلِّ ضلعٍ من أضلاعه الثَّمانية عضادةٌ ضخمةٌ ذاتُ شكلٍ فريدٍ، تتألَّف الواحدةُ منها من عدَّة أضلاعٍ متداخلةٍ ومنكسرةٍ ومنحنيّةٍ، وتحمل هذه العضائد فوقها كتلَ الأقواس الَّتي بدورها تحمل كتلةَ القبَّةِ المركزيَّة

والسَّقف. ويوجد في كل زاويةٍ من الزَّوايا الرئيسة الأربعة من الدَّاخل حنيةٌ على شكل حجرةٍ نصف دائريَّة،تنفتح كلّ منها على جسم البناء الدَّاخلي المثمّن بقنطرةٍ جميلةٍ تعلوها نافذةٌ مقوَّسةٌ(Butler,1920,.122). انظر إلى المخطط (6)



المخطط (6) كنيسة ازرع

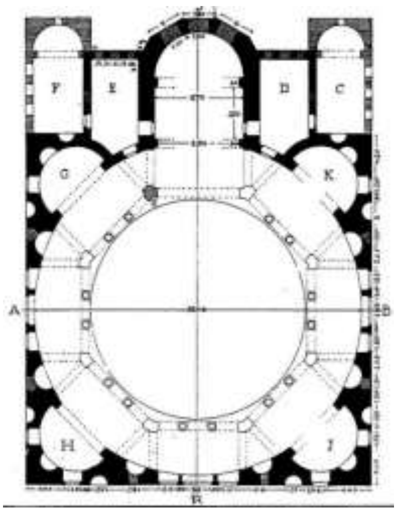
طريقة التَّسقيف: اعتُمد في عملية التَّسقيف على رصف كتلٍ حجريَّة طويلةٍ بحيث يرتكز طرف كلٍّ منها على حافة الأقواس، والطَّرف الآخر على الجدار الجانبيّ، ثمَّ يُصار إلى رصف سقفٍ آخرَ بحجمٍ أصغرٍ من السَّقف الأوَّل وباتجاهٍ معاكسٍ بهدف جعل البناء أكثرَ قوَّةٍ ومتانةٍ، ويشكِّل هذا السَّقف مع الأقواس أروقةً، تحيط بالمساحة المركزيَّة الَّتي تغطيها القبَّة، إذ تقوم العضائد والأقواس الَّتي تأخذ شكل الدَّائرة وسط الكنيسة بحمل رقبة مثمَّنةِ الشَّكل، تتخلَّلها النَّوافذ، وترتكز عليها كتلة القبَّة انظر الى الصورة (3).

كانت قبَّةُ هذه الكنيسة مبنيةً من الحجر البازلتيّ، لكنَّها انهارت، وأُعيد بناء القبَّة باستخدام الخشب المُغطَّى من الخارج بطبقةٍ معدنيَّةٍ، يبلغُ ارتفاعُها عن أرضيَّة الكنيسة أكثر من 15متراً (الحجي، 375)

6- كاتدرائية بصرى:

تقع في مدينة بصرى الَّتي تتبع محافظة درعا، بُنيت من الحجر البازليتيّ الأسود، وقد أُقيمت هذه الكنيسة على أنقاض هيكلٍ وثنيٍّ في العام 512م ، وقد كرّست للقدِّيسين سرجيوس /Sergius وباخوس/ Bacchus ولاونديوس/Leonidius، وهي من التخطّيط المركزيّ، مخطَّطُها مربَّعٌ من الخارج دائريَّةٌ من الدَّاخل، طول ضلعه الخارجي 38م، يعلوه قبَّةٌ ضخمةٌ، كانت تغطِّي

مساحةً دائريَّةً قطرُها 37م، استُغلت سماكةُ الجدران في تشكيل العديد من المحاريب، وفي وسط المساحة الدَّائريَّة ثماني ركائزَ ضخمةٍ على شكل حرف L مفتوح، بين كلِّ ركيزتين عمودان، تساهم جميعها بحمل القبَّة، وقد استُغلت المساحاتُ المحصورةُ بين المساحة الدائريَّة وأركان المربَّع لتنفيذ أربعَ حنايا ركنيَّة نصفَ دائريَّة في كلٍّ منها أربعُ أعمدة، وخلف الركائز رواقٌ دائريٌّ عرضُه حوالي 5 م لسهولة التَّنقل، ويحتلُّ من جهة الشَّرق مساحةً مستطيلةً تشكِّل الهيكلَ، أبعادها 11.25× 9.20 م تتضمَّن المائدةَ والمذبحَ وحنيةً نصف مستديرة من الدَّاخل ناتئة إلى الخارج بشكلٍ نصفِ دائرةٍ غير منتظمة ذات زوايا عديدة(اثناسيوس، 1997، مج5، 509). انظر إلى المخطط(7)



المخطط (7) كاتدرائية بصرى



الصورة (4) مشهد لكاتدرائية بصرى من الداخل

ولكلِّ جهةٍ من الكاتدرائيَّة أبوابٌ عديدةٌ منها كبيرةٌ ومنها جانبيَّة صغيرةٌ، فهناك ثلاثةُ أبوابٍ في كلٍّ من الواجهات الشّماليَّة والغربيَّة والجنوبيَّة، وهناك شبابيكُ ونوافذ كثيرة للإنارة إضافةً إلى عددٍ كبير من المشكوات المقبَّبة في زوايا الجدران من الدَّاخل أو الخارج لعلَّها استُعملت لوضع التَّماثيل انظر الصورة (4) ، والواجهة الغربيَّة كانت تتألَّف من ثلاثة عقودٍ أكبرها أوسطها محمولة على عمودين، تتخلَّلُها ثلاثةُ أبوابٍ أكبرها أوسطها (اثناسيوس، 1997، مج5، 511)، أمَّا من ناحية الزخارف فتجلّت الزَّخارف بالمشكاوات الَّتي كانت تحوي تماثيل، وزينة القوس الكبير، وكورنيش قدس الأقداس، أمَّا الجدران من الدَّاخل فقد كانت مكسوَّةً بالرّخام، وتجلَّت الزّينةُ الحقيقيةُ للكنيسة بالرُّسوم الزَّيتيَّةِ، ولم يبقى منها الكثير حتَّى زارها دي فوغيه/DE Vogue في العام 1865م، وما زالت آثار صورة العذراء والقدِّيسين من حولها خير دليل على هذه الرّسوم في حنية هذه الكنيسة، ومن المؤكَّد أنَّ هذه الكنيسةَ كانت مكرَّسةً لأشهر قديسي سوريَّة، وهم سرجيوس وباخوس ولاونديوس، وعلى الرَّغم من توفيق المهندِّسِ المُنشئِ لهذه الكنيسةِ في التأليف بين المقاييس ودمج الأشكال الهندسيَّة، إلَّا أنَّه فشل في تنفيذ قبَّتها الَّتي هَوَت بعد سنواتٍ قليلةٍ من إنشائها، إلَّا أنَّها كانت درساً استفاد منها كلٌّ من مهندِّسي آيا صوفيا ورافينيا لاحقا ً(اثناسيوس، 1997، مج5، 520)، وقد تهدَّمت واجهة الكاتدرائية ولم يبقَ فيها إلَّا قسمٌ من الزَّاوية الشَّمالية الغربيَّة للحائط الخارجيّ مع محرابه وزخارف إفريزه.

- ثانياً: الدراسة التحليلية

1- الغرض الوظيفي من هذه الكنائس:

لم تقتصر المباني مركزيَّة التَّخطيط على كنائس الشُّهداء، بل كانت كنائس تقليديَّة تجمع المصلِّين، حيث أنَّ الكنيسةَ مركزيَّةَ التَّخطيط وجدت جنباً إلى جنبٍ مع الكنيسة البازليكية منذ عصر قسطنطين الاول، وليس تطوراً لعمارة البازليكا بهدف استبدالها، وإنْ كان من الممكن تفسير أفضليَّة استخدامِ التَّخطيط المركزيّ لكنائس الشُّهداء وظيفياً، فإنَّ الأمر يمثِّل إشكاليَّةً بالنسبة لمعايير اختيارِ أو تفضيلِ الشكل المعماريّ ذو التَّخطيط المركزيّ ككنيسة تقليديّة أو كاتدرائية، وهل هي رغبةُ إمبراطوريّة في نشر هذا التّخطيط أم أنَّ الأمر له علاقة بالموضة المعماريَّة إذا جاز التّعبير، ومن الأسباب الَّتي أدَّت إلى انتشار الطِّراز المركزيّ ربَّما، لأنَّ الطِّراز البازليكي لم يقدِّم حلَّاً جيّداً في الحقبة المبكِّرة لمعالجة غرض الوعظ، وخاصَّةً في البازليكيات الضَّخمة، حيثُ يجلس الأسقف على الكرسي بنهاية الحنيةِ، والمواعظ كانت تأخذُ وقتاً طويلاً قد يستغرق ساعتين ممَّا يرهق الواعظ أو الأسقف.

2- مخطط الكنائس:

إنَّ معظمَ الكنائس ذات القبَّة المركزيَّة في سوريَّا خلال هذه الحقبة، كانت صليبيَّة من الخارج والدَّاخل ككنيسة سمعان والرّصافة وأفاميا، وكان بعضُها مثمَّنةً من الدَّاخل والخارج ككنيسة مرعيَّة، وبعضُها مربعٌ من الخارج دائريٌّ من الدَّاخل مثل كاتدرائية بصرى، وبعضها مثمَّنٌ من الدَّاخل مربعٌ من الخارج ككنيسة مار جورجيوس في إزرع، وفي المباني المركزيَّة التَّخطِّيط يكون محور البناء المساحة المركزيَّة (عادةً مغطَّاة بقبَّةٍ)، حيث تنتظم بقيَّة الفراغات أو العناصر حوله في سيمانترية، وذلك على عكس التَّخطِّيط البازليكي، حيث يمثِّل المحور الطولي لها باتجاه الحنية محور البناء وبؤرة التَّخِّطيط، كما أنَّ جميع القباب المستخدمة في هذه الكنائس، كانت كرويَّةً ذات مسقط دائريّ ما عدا كنيسة سمعان هرميَّة مثمَّنة الأضلاع، وأغلب القباب المستخدمة في هذه الكنائس، كانت تقوم على رقبة مثمَّنةٍ باستثناء كنيسة أفاميا؛ فقد قامت على رقبة مربَّعةٍ وكنيسة مرعيَّة على رقبة دائريَّة، انظر الى الجدول رقم (1) ، ويُمثِّل التَّخطِّيط المركزيُّ حلَّاً معماريَّاً نموذجيَّاً للعمارة الجنائزيَّة التَّذكاريَّة أو لكنيسة الشَّهيد، حيث يكون الضَّريح أو الذَّخائر المقدَّسة للرَّسول

أو الشَّهيد في مركز البناء، وتنتظم حوله بقيَّة الفراغات، ويساعد التَّخطِّيط المركزيُّ على توفير مساحةٍ متَّسعةٍ حول التَّابوت أو التَّركيبة للطَّواف حولها والحج إليها(امين،2015 ، 95).

3- رمزية الكنائس مركزية التخطيط:

وهذا التَّخطّيط المركزيُّ يُعبِّر بصورةٍ أفضلَ عن التَّصوّر الكونيّ للمسيحيَّة، حيث ينظر إلى الكنيسة كصورة مصغَّرةٍ للكون، وكصورةٍ حيَّةٍ مرئيَّةٍ لانتصار المسيح، وقوته ووجوده الدَّائم على الأرض، ودلالة التَّغطيَّة بالقباب تُمثِّل تأويلاً رمزيَّاً لهذا المفهوم للعالَم الكونيّ، وقد انعكست هذه الرمزيَّة على برنامج التَّصوير للقباب في العمارة البيزنطيَّة بصفة خاصَّة في الفترات اللاحقة.

4- مواد البناء:

وأمَّا بالنِّسبة لمواد البناء فقد استُخدمت أحجارُ البازلت كمادَّة إنشائيَّةٍ أولى في المنطقة الجنوبيَّة، وكان البناؤون يضيفون مادَّة الكلس كملاطٍ بين الجدار الدَّاخليّ والخارجيّ ولاسيما أن الجدران كانت تتألّف من أكثرَ من طبقةٍ، وقد عمل البناؤون بشكلٍ متأنٍ للحفاظ على الشَّكلِ الأفقي للمداميك الَّتي تراوح ارتفاعها ما بين 20-25سم، وبسبب قساوة الحجر البازلتي المستعمل نُقشت الزَّخارف والتَّفاصيل المعماريَّة الأخرى بشكلٍ سطحيٍّ، وعلى العكس من المنطقة الجنوبيَّة ساد في شمال سوريَّة استخدام الحجر الكلسيّ، ليس في الكنائس ذات القبَّة المركزيَّة فحسب، وإنَّما في مجمل الكنائس، ويُعتَبر هذا الحجر أكثر طواعيَّةً وملائمةً لظروف البناء والزَّخرفة بسبب ليونته مقارنةً مع البازلت، أمَّا في المنطقة الوسطى مثل أفاميا فتوفَّرت الحجارة الكلسيَّة ككنائس شمال سوريّة، وفي المنطقة الشَّماليَّة الشَّرقيَّة الَّتي امتازت بالطَّابع الصَّحرواي وندرة الحجارة إلى استعمال الآجر المشويّ بالإضافة لبعض الأنواع من الحجر المستورد ، وقد لوحظ استعمال التَّناوب بين الحجر البازلتي والآجر المشوي ثلاثة مداميك من كلٍّ نوع مثل كنيسة ابن وردان المقبَّبة(ديركيفوركيان،2002، 78-80) ، إذاً فمواد البناء المستخدمة في الكنائس أُخذت من البيئة المحليَّة المجاورة للكنيسة؛ فكنائس شمال سوريًا استُخدم فيها الحجر الكلسيّ المحليّ مثل كنيسة سمعان ومرعيَّة أمَّا كنائس جنوب سوريًا فاستُخدم

فيها الحجر البازلتيّ مثل كاتدرائية بصرى ومارجورجيوس في إزرع، في حين استُخدم الحجر الأبيض الجيريّ في كنيسة الرّصافة انظر الى الجدول رقم (1).

الجدول (1) جدول مقارنة بين الكنائس المدروسة

اسم الكنيسة	تاريخ بنائها	المخطَّط العام		مادَّة البناء	القبَّة	
		الخارج	الدَّاخل		الرَّقبة	نوعها
سمعان العموديّ	(476-490 م)	صليب	صليب	حجر كلسيّ	مثمَّنة	هرميَّة مثمَّنة الأضلاع
الرّصافة	قرن 5	صليب	صليب	حجر أبيض جيري		-----------------
مارجورجيوس إزرع	(515-516 م)	مربَّع	مثمَّن	حجر البازلت	مثمَّنة	دائريَّة نصف كرويَّة
مرعيَّة	قرن 5	مثمَّن	مثمَّن	حجر كلسيّ	دائريَّة	دائريَّة نصف كرويَّة
كاتدرائية أفاميا	قرن 6	صليب	صليب	حجر كلسيّ	مربَّعة	دائريَّة نصف كرويَّة
كاتدرائية بصرى	512م	مربَّع	دائريَّة	حجر البازلت	مثمَّنة	دائرَّة نصف كرويَّة

– النَّتائج:

– الغاية من التخطيط المركزي كان وظيفياً فتنوعت مخططات الكنائس مركزية التخطيط في سورية مابين الصليبية أو المثمنة من الداخل والخارج او المربعة من الخارج دائرية من الداخل.

– القباب المستخدمة في تغطية هذه الكنائس كانت كرويَّةً ذات مسقط دائريّ ما عدا كنيسة سمعان هرميَّة مثمَّنة الأضلاع.

– هناك تنوع في الرقاب الحاملة للقباب (مثمنة، مربعة، دائرة).

– مواد البناء المستخدمة في هذه الكنائس أُخذت من البيئة المحليَّة المجاورة للكنيسة فاستخدم الحجر الكلسي في كنائس شمال سورية والحجر البازلتي في كنائس جنوب سورية.

– الكنائس مركزية التخطيط تمثل الكون وتمثل انتصار المسيح ووجوده الدَّائم على الأرض.

– لم يكن هناك مفهوم المدرسة المعماريَّة كما في العمارة الرومانيَّة والتي اتسمت بمركزيَّة التَّخطِّيط، بينما في العمارة المسيحيَّة المبكِّرة يصعب افتراض وجود مدرسةٍ معماريَّةٍ واحدةٍ، حيث تعدَّدت التَّخطّيطات والمعالجات المعماريَّة للغرض الوظيفي الواحد، لذا

فقد اتسمت بالمرونـة فـي التَّخطّيط، فكلٌّ منطقة استفادت من موروثها الثَّقافي فـي معالجة الحاجـة المعماريَّة لتعطـي شكلاً معماريًّا مميَّزاً.

- المصادر الأجنبيَّة:

- EVAGRIUS SCHOLASTICUS.(1846). *Ecclesiastical History (431-594.AD)*. translated by E Walford. London.

- **التمويل:** هذا البحث ممول من قبل جامعة دمشق وفق رقم الممول 50100020595

المراجع العربيَّة والأجنبيَّة:

- اثناسيوس، متري هاجي.(1997). *سورية الجنوبية، موسوعة بطريركية إنطاكية الاثرية والتاريخية (سورية المسيحية في الالف الأول الميلادي)*.مج 5. ط1.
- اثناسيوس، متري هاجي.(1997). *سورية الوسطى، موسوعة بطريركية إنطاكية الاثرية والتاريخية (سورية المسيحية في الالف الأول الميلادي)*، مج3. ط1.
- امين، احمد.(2015). *العمارة المسيحية المبكرة* ،الإسكندرية.
- حجار،عبد الله.(1995). *كنيسة القديس سمعان العمودي*، دار ماردين.
- الحجي ، سعيد . *كنيسة ازرع.* هيئة الموسوعة العربية، مج1 ، دمشق.
- ديركيفوركيان، شاهي.(2002). *علاقات هندسة العمارة المسيحية المبكرة بين ارمينيا وسوريا* ، ترجمة الكسندر كشيشيان، حلب.
- رباط، الخوري جبرائيل.(1931)."*اسألو عن مجد الجدود*"، مجلة العاديات، السنة الاولى، العدد السادس والسابع، حلب.
- ضو، بطرس.(1977). *تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري الكنائس المارونية القديمة في سوريا من مار مارون إلى القرن السابع*، الجزء الثاني، دار النهار، بيروت.
- BISCOB. J.L. & SODINI. J.P.(1983). " Travaux récents au sanctuaire syrien de Saint-Syméon le Stylite (Qal'at Sem' an)". *CRAIBL* 127/2 .
- BUTLER. H.C.(1969). *Early Churches in Syria fourth to seventh centuries*.Amsterdam.
- KRENCKER.D .(1934). " War das Oktogon der Wallfahrtskirche des Simon Stylites in Kal΄at Sim'ân überdeckt?'', *JDAI* 49.
- LASSUS. J.(1947). *Sanctuaires Chrétiens de Syrie, Essai sur la genèse . la forme et l'usage liturgique des édifices de culte chrétien en syrie, du IIIe siècle á la conquête musulmane* . Paris.
- LASSUS. J.(1931). *''Deux églises cruciformes du Hauran''* , *BEO I*. pp.13-48.
- TCHALENKO .G.(1979). *Églises de village de la Syrie du Nord- album* , Paris.
- TCHALENKO .G.(1979). *Églises de village de la Syrie du Nord- planches*, Paris.

- TCHALENKO .G.(1990). *Églises Syrinnes à Bêma,Texte*.Paris.
- TCHALENKO .G.(1953-1958). *Villages antiques de la Syrie du Nord*, vol.I . Paris.
- TCHALENKO .G.(1953). *Villages antiques du la Syria du Nord,vol.* II. Paris.
- TCHALENKO .G.(1958). *Village antiques de la Syria du Nord ,vol.III* . Paris.
- Ward-Perkins. J.B.(dec 1966). "Imperial Mausolea and Their Possible Influence on Early Christian central-plan bulidings".*jurnal of Society of Architectural Historians 25* .no.4.
- MANGO.C.(1976). *Byzantine architecture (History of World Architecture)*. New York.p.80.
- H.SPANN, U.S.GUYERE.(1926). *Rusafa,Die Wallfabrtstadt des beil .Sergios,* Berlin.